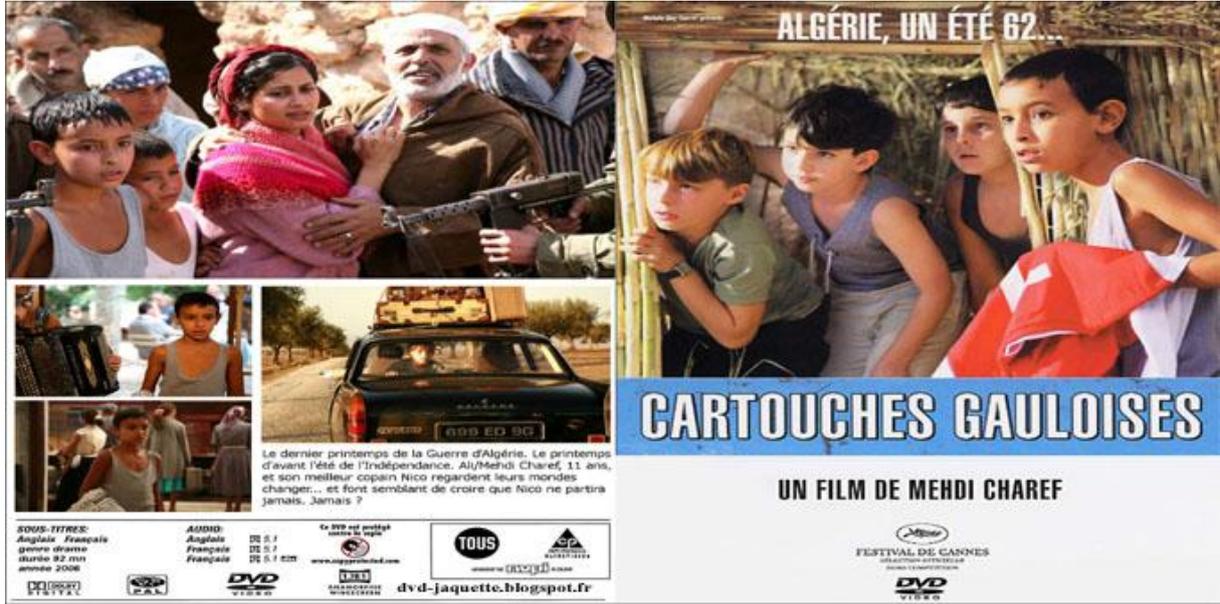


إن آثار الثورة لا تزال عالقة في أذهان السينمائيين الجزائريين حتى يومنا هذا، ولكن ليست دراسة لمخلفات المستعمر المادية والمعنوية التي تستفز الذاكرة وإنما تصوير لشخصيات تاريخية تفخر بها الجزائر ساهمت في تحرير الوطن على غرار فيلم **مصطفى بن بولعيد** (2008) لمخرجه **أحمد راشدي** وفيلم **زيانا** (2011) للمخرج **سعيد ولد خليفة** وكذلك فيلم **خارجون عن القانون** لمخرجه **رشيد بوشارب** (2010).

ينتمي فيلم **كارتوش غولواز** إلى سينما السيرة الذاتية بخلفية تاريخية، حيث أنجز في إطار تظاهرة **الجزائر عاصمة الثقافة العربية** (2007) مشاركا في **مهرجان كان السينمائي** في السنة ذاتها لكن خارج المسابقة الرسمية، حيث رصدت له وزارة الثقافة الجزائرية 1.8 مليون أورو، وهو المبلغ الذي وصفه المخرج **محمد لخضر حمينة بالخرافي**⁽¹⁾.

يحكي الفيلم قصة الطفل **علي** بائع الجرائد صاحب العشر سنوات من خلال تصوير عالم علي المتأرجح بين الطفولة والحرب، حرب كانت في آخر انتصاراتها - في آخر سنة للاحتلال بالجزائر أي سنة 1962 - وطفولة تقاسمها رفقة أصدقائه الثلاثة: **نيكولاس الفرنسي، وجينو الإسباني، ودافيد اليهودي**.

الفيلم مستوحى من ذاكرة طفولة المخرج **مهدي شارف**، الذي عبر عن فيلمه قائلا: "... كان اهتمامي كله منصبا على شيء واحد. لقد سرقت مني طفولتي مرة ولا أريد لأحد أن يسرقها من جديد، جرح واحد يكفي.."⁽²⁾ كما يقدم نظرة بانورامية عن مشاهد لم نعهد مثيلاتها في تاريخ السينما الجزائرية الثورية.



بنيت أحداث الفيلم على عدة قصص مختلفة رابطها الوحيد هو الطفل: **علي** الذي كان شاهدا على المجازر الدموية للاستعمار الفرنسي وشاهدا أيضا على التصفيات الجسدية للمعمرين على حد سواء، كما كان شاهدا على رحيل أعرز أصدقائهم رفقة عائلتهم الأوربية غداة إعلان استقلال البلاد.

يعرض الفيلم تناقضات جمة في تلك الفترة وينتقل بين محطة القطار التي يرأسها مواطن فرنسي مسالم وقاعة السينما التي أصبح مدمنا عليها **علي** مع صديقه الفرنسي الذي كان يعرض له أفلاما خالدة، الكوخ الذي بناه الأطفال الأربعة تحت معبر القطار والذي أسسوا عبره لحياتهم، وطفولتهم وعبروا فيه عن انشغالاتهم التي لا تشبه انشغالات عالم الكبار الذي ينظرهم عالم أهملهم، وظلمهم كما يعرض طفولة **علي** المبنية على حب كرة القدم التي كان يلعبها رفقة أصدقائه في ملعبهم الوهمي الأسطوري **ريمس** والذين أهدهم قميصا باسم الملعب في عيد ميلاده العاشر.

اختزل المخرج عنجوية فرنسا الاستعمارية في شخص الضابط الفرنسي **لوران** الذي يلقي حتفه على يد أبرز معاونين له، كما اختزل فئة (الحركي) في شخص **جلول الحركي** الذي نجده في كل عملية قتل وبطش وعنف والذي قتل على يد الفلاحين، وبالمقابل قدم شخوصا مسالمين مثل مدير محطة القطار **برنالي** الذي يتحسر على مغادرته للجزائر بقوله: "لا تتسونا لأنكم وحدكم أنتم الذين تعرفتم إلينا"⁽³⁾، كما يقدم شخصية **راشيل** اليهودية التي ترفض الرحيل بقولها "أفضل الموت على يد العرب على عيش المهانة في فرنسا"⁽⁴⁾، كما نسجل غياب فئة المجاهدين في الفيلم، والذي اقتصر على بعض شخصيات الفيلم التي تعد على الأصابع، مثل **أب علي** الذي اعتبره أصدقاء **علي** "إرهابيا"، ضف إلى ذلك مشهد التعذيب الذي لاحظنا فيه ثلاثة مجاهدين فقط في مركز الشرطة أين يتم تحويلهم إلى السجن ومعهم **أبو علي**.



تتصدع الصداقة التي بني عليها الفيلم برحيل **دافيد وجينو** وخصومة **علي** و**نيكو** بسبب تعليق **علي** العلم الجزائري في واجهة الكوخ غداة الاستقلال، وهنا تتضح استحالة الصداقة الجزائرية الفرنسية بسبب ما حدث في الماضي، وهكذا يغضب **نيكو** الفرنسي من **علي** ويقول له: "كلكم أوغاد هذا الكوخ هو أيضا ملك لي" (5) في دلالة واضحة على تمسك فرنسا بالجزائر حتى النخاع، وينتهي الفيلم بمشاهد الفرح الذي جلبه الاستقلال والتحرر من فرنسا الاستعمارية ومن طغيانها الأعمى.

يعد فيلم **كارتوش غولواز** شهادة لأحد المخرجين الجزائريين لجوانب منسية في تاريخ الثورة التحريرية، فالفيلم قدم بوجهة نظر صاحبه سرد فيه حقيقة تاريخية مفادها أن فرنسا استعمرت الجزائر وبطشت فيها، وأما الحقيقة الفردية مفادها أن مهدي الطفل البريء أصبح مخرجا سينمائيا وقدم لنا **علي بأعين مهدي** الذي صور فيلما عن ما حدث في ربيع 1962 من مآسي وكيف تلقاها وهو طفل صغير.

نجد هذا التاريخ الحازم والمر والعنيف في حكاية سينمائية شجاعة وغير متحيزة لفريق ما رغم ما أثير حول الفيلم من اتهامات قاسية وغير موضوعية كتجميل الفترة الاستعمارية، وأنسنة المعمرين وإضفاء بصمة نوستالجية على ذات الفترة، لكن ما نشاهده في الفيلم هو أقرب إلى السيرة الذاتية لطفل شاهد عيان على آخر أيام الكولونيالية ولا علاقة له بتصفية حساب مع الثورة⁽⁶⁾، غير أن المشكل الواضح، والجلي في الفيلم - بغض النظر عن ما قيل - أن هناك هفوات تاريخية لا تغتفر، وتعتبر خيانة في حق الجزائر عند المساواة بين الجلاذ والضحية لأن القضية المطروحة في الفيلم هي حرب الجزائر، بمعنى أن جميع الحقائق التاريخية تدين فرنسا بدون جدال أو نقاش، وإذا أردنا أن نتوخى الموضوعية فليس في مسألة كهته - حرب الجزائر - لأن المخرج قدم فيلما سينمائيا، فهو ليس مطالب بتوخى الموضوعية كما في البحث العلمي وإنما عرض عمل مبدع وفق نظرة فنية وإيديولوجية معينة، وعليه فإن أي حديث عن موقف المخرج الموازي بين المجاهدين والمغتصبين للجزائر لا مبرر له.

فجر فيلم **كارتوش غولواز** قنابل بالجملة غداة عرضه الأول في الجزائر، حيث اتهمه قطاع واسع من الجزائريين بطعن ذاكرة ورموز هذا البلد، والجنوح نحو تمجيد الاستعمار، رغم أنه استتفز أموال الحكومة الجزائرية، فالمنتقدون أعابوا على المخرج المغترب **مهدي شارف** تصويره فرنسا كملاك، وارتضائه دور المشاهد المحايد دونما تبني موقف واضح مع أنه ابن الجزائر.



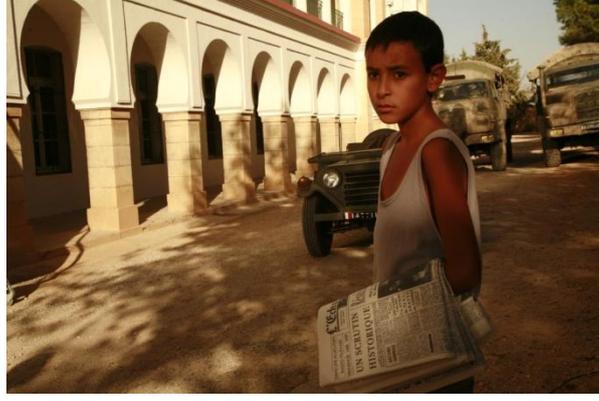
وكما لا يخفى على أحد أن الاستعمار الفرنسي يصن ف من بين أسوأ أنواع الاحتلال، الذي تعدت جرائمه كل الخطوط الحمراء التي تفرضها الإنسانية، فمن إبادة جماعية بالحرق ك**محرقة الظهرة** وحادثة **الشكاير** بالأغواط إلى ممارسة كل أساليب القهر والتجهيل والتجويع ضمن سياسة الأرض المحروقة، وقوانين الأهلي المحتقر وصولا إلى تجريب القنبلة الذرية بجنوب الجزائر واستعمال الأسلحة المحظورة إبان ثورة التحرير .

على عكس المخرج مهدي شارف، سجّل كل من أحمد راشدي وعمار العسكري شهادة على بشاعة المستعمر الفرنسي بفيلم يهما دورية نحو الشرق والأفيون والعصا هذا الأخير الذي صور قرية تالا بمنطقة القبائل ومعاناة أهلها جزاء العنف والدمار الذي اقترفه المستعمر الفرنسي بها.

وأما فيلم عمار العسكري، فقد سرد حقائق تاريخية في قصة خيالية تدور أحداثها على الحدود الجزائرية التونسية أين حاولت دورية تابعة لجيش التحرير الوطني تهريب سجين إلى تونس، وبطريقة واقعية يصور المخرج يوميات المجاهدين، وما يعانونه في رحلتهم نحو الاستشهاد حيث يقول عنه مخرجه " إنه ليس فيلما حربيا كما تعتقدون وإنما هو فيلم عن الحرب كما عشتها إنه فيلم يصور أشياء عشتها وأخرى ذكريات رواها لي أشخاص عايشوا الحرب" (7)، ما يميز هذا الفيلم أن شخصياته طبعت بالبساطة والسمود حتى الاستشهاد، أما في فيلم كارتوش غولواز فقد قام مخرجه بسرد الأحداث بطريقة صورت عمق العلاقة الإنسانية بين الفرنسيين المدنيين والمواطنين الجزائريين دونما تبني لموقف جزائري أو فرنسي (8)، وفي رد له على موجة الاستياء والانتقادات التي وجهت له قال المخرج: "إنها قراءة سينمائية لا غير لما عايشه في خمسينيات القرن الماضي" (9) لكن هذا الرد غير مبرر بدليل أنه أهان العلم الجزائري في مشهد يسأل فيه علي أمه عن ألوان العلم الجزائري، فتجيب وهي تضعه أرضا بأنها ثلاثة: الأبيض، الأحمر، الأخضر (10). فكان حريا به أن يضع العلم فوق طاولة، أو غير ذلك لأن العلم مقدس وسيميائية وضعه أرضا تعني الشيء الكثير، وردا على هذه الحادثة أجاب المخرج أن وضع العلم على الأرض يعبر عن: "مدى التعلق بالأرض والجذور" (11).

وضع المخرج مهدي شارف نفسه في مواقف حرجة تثير الجدل، فقد اعتبر الناقد جمال عمامش الفيلم فضيحة لأنها ساوت بين الجلاذ والضحية من جهة، ولأنها أفغنت الجزائر وهذا غير صحيح بدليل أن في الجزائر ملايين الشرفاء الراضين للإرهاب (12) ولعل تصوير المجاهدين بالزبي الأفغاني واللحي في محطة القطار لدليل على ذلك، وهذا يعد مغالطة كبيرة، واتهام صريح في حق مجاهدي وشهداء هذا البلد، وفي حق تضحيات شهداء الجزائر ومجاهديها.

علق مهدي شارف على تصوير المجاهدين بتلك الطريقة أنه لم يقصد إهانة الجزائر، وصنف كل هذا في خانة الرؤية الإخراجية، كما اعترف أن عدم تبنيه لأي موقف في الفيلم مرده لكونه أخرج الفيلم ببراءة طفل في العاشرة من عمره، مضيفا أنه لم يكن وقتها مؤهلا لإصدار أي أحكام في مثل سنه وعليه اكتفى بدور الشاهد، وأضاف أن فيلمه جاء حاملا للمصداقية المطلوبة مع تمكنه من مقارنة الأحداث التاريخية بدون انحياز بدليل تصويره عمليات القتل الجماعي التي اقترفتها فرنسا بجانب مدهامات المجاهدين لمنازل المعمرين وتصفييتهم (13)، لكنه رد غير مقنع تماما وهو تبرير لشيء غير مبرر لأنه يستحيل وضع الجزائريين والفرنسيين في الكفة نفسها لأنهم هم المغتصبون، وهذه الأرض هي أرض جزائرية، وعليه فإن الكفة ستميل حتما لصالح المجاهدين الجزائريين الذين دافعوا عن هذه الأرض شاء المخرج أم أبي ذلك.



يقال أن مهدي شارف صاحب فيلم شاي في حريم أرخميديس انتظر عشرين عاما لكي يخرج فيلم كارتوش غولواز أملا أن تتحسن العلاقات الفرنسية الجزائرية، غير أنه غامر عام 2007 وأخرج هذا الفيلم الذي زج به في أرض ملغومة، وفي مغامرة غير محموددة العواقب خاصة وأنه تناول حرب الجزائر سينمائيًا التي تحمل حساسيات عدة على المخرج اللعب على أوتارها وتوخي الحذر من المس برموز الجزائر لأنها تتحوا نحو القدسية.

ننطلق في تحليلنا نحو عنوان الفيلم كارتوش غولواز، وهذا يحيلنا إلى معنيين اثنين: فلفظ كارتوش قد يعني خراطيش، أي ذخيرة رصاص أو علبة سجائر، وأما الغولواز فهي ماركة سجائر فرنسية والغولوا هو الكائن الفرنسي، إذا ربطنا علب الغولواز بفحوى الفيلم ومعنى الكلمتين فسنجد أن الغولواز هم الفرنسيون والكارتوش أو العلب هم الجزائريون وعليه فإن ما يربط بين ذخيرة الرصاص والسجائر هو الدخان المتصاعد في كلتا الحالتين والمنذر بالحرب.

الفيلم يجول بنا بعيني الطفل علي البائع المتجول من مشهد إلى آخر حاملا من خلال نظراته البريئة



عدة اتهامات لجميع الأطراف في الفيلم من فرنسيين وحركي ومجاهدين، لا يتحدث الفيلم عن السياسة ولا عن

أحداث تاريخية وإنما يصور وقائع حدثت في جزائر ما قبل الاستقلال مع تسجيل عنف كبير تخلل

نهاية النزاع من عمليات المجاهدين ضد المدنيين الفرنسيين، وعائلاتهم فرنسا ليست الشريرة دائما حسب أحداث الفيلم فهناك شر اقترفه المجاهدون أيضا.

تنتقل الكاميرا بعين **علي** مصورة جرائم فرنسا بصورة سطحية جدا، يقول المخرج: "قيل لي أن الفيلم عنيف ولم أنتبه لذلك"⁽¹⁴⁾، غير أنه يحمل في طياته عنفا رمزيا ومعنويا "نلمس فيه أشكال العنف الأفقي والعمودي الذي يطغى على أحداث الفيلم"⁽¹⁵⁾. فأصدقاء **علي** الذين أهدوه قميصا رياضيا - في عيد ميلاده - يرحلون كلهم، إعدام خاله، وإبادة عائلة أقاربه واغتصاب قريبته يوم زفافها من طرف الضابط لوران، أب (**علي**) الذي تعرض للتعذيب، تفجيرات المنظمة السرية، القتل العشوائي من طرف الضابط لوران الذي يرمز لفرنسا الاستعمارية بأعين الطفل البريء **علي** الذي سجل أبشع الجرائم بأمر عينيه. ضف إلى ذلك تناوله لقضية "الحركي" أثناء الثورة من خلال شخص **جلول الحركي** الذي اقترف عديد الجرائم، فنبذته عائلته في النهاية.

يرى الناقد والصحفي **عثمان تزغارت** أنه: "من نقاط القوة في الفيلم المقاربة الإنسانية المؤثرة التي قدم بها الموضوع الأكثر إشكالا في حرب الجزائر"⁽¹⁶⁾؛ ف**جلول الحركي** كان يثير الرعب والخوف في نفس **علي**، ويتسبب عرقا كلما شاهده لأنه يعلم بأنه يقود حملة قتل شرسة ضد أبناء جلدته، حيث يخبر الفلاحين في نهاية الفيلم عن مكان اختبائه.

حضر العنف في الفيلم ولون الدم القاني بقوة وبإقناع ولسان حاله يقول بأن التاريخ تأسس على العنف ويختمه أيضا هذا العنف⁽¹⁷⁾؛ فالمخرج قرأ تاريخ الجزائر من زاوية رؤية شخصية وبأعين طفل بريء لم ير في هته الفترة غير العنف مختزلا في الاغتصاب، والقتل، والتعذيب، وعنفا معنويا تمثل في الحرمان. إن تاريخ السينما الجزائرية يستدعينا للتوقف عند فيلم مشابه لفيلم **كارتوش غولواز** هو فيلم **يا ولاد** لمخرجه الجزائري **رشيد بن علال** الذي أنتج عام 1990، والذي يحكي قصة مجموعة من الأطفال الذين يقومون بمغامرات متكررة، وذلك في آخر سنة من استعمار الجزائر، فحتى الكوخ الذي بناه **مهدي شارف** في فيلمه وجمع فيه بين (**علي** وأصدقائه الأوروبيين) من أبناء المعمرين، بناه **رشيد بن علال** لكن كوخه كان ملكا للأطفال الجزائر فقط، الذين كانوا ينطلقون منه لمحاربة أبناء المعمرين بمسدسات خشبية، وبالجارة التي كانوا يتفنونون في إلقائها، وذلك في المنطقة المخصصة للمعمرين وقد كان الأطفال الجزائريون هم المتفوقون دائما.

كما يحكي الفيلم أيضا عن مشاركة الطفل الجزائري في تحرير الجزائر من خلال تكتهم على المجاهدين، ووعيمهم بضرورة التضحية في سبيل تحرير البلاد واستقلالها.

إن الفرق بين الفيلمين واضح وجلي على اعتبار أن بطل فيلم **كارتوش غولواز** كان يقف موقف المتفرج، والمشاهد لأحداث عنف دامي يمر من أمامه دونما تحرك منه ما عدا إخباره عن مكان **جلول الحركي** في نهاية الفيلم، وأما فيلم **يا ولاد** فأبطاله عايشوا العنف الفرنسي، وتصرفوا تصرف الكبار، وشاركوهم في انتزاع الاستقلال.

ما يمكن استخلاصه عند دراسة وتحليل الأفلام الثورية بشكل عام وفيلم **مهدي شارف** بشكل خاص أن التمثل البصري للعنف هو أحد السمات المميزة للفيلم الثوري الجزائري الذي استمد شرعيته من شرعية الدفاع عن سيادة وعقيدة هذا الوطن.

قائمة المصادر والمراجع:

1. 292 الفيلم الجزائري كارتوش غولواز إهانة للجزائريين www.aafak.org
2. عبد الغني بومعزة، إطلالة على السينما، قراءات نقدية سينمائية، دار التنوير للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012، ص131.
3. Mahdi Charef ,Cartouche Gauloise, Pr : laith Media, CNC ,Canal+,Ciné Cinéma ,Pathé Distribution 2007 (1h :20).
4. Mahdi Charef ,Ibid. (1h :18).
5. Mahdi Charef ,Op.cit. (1h :22).
6. عبد الغني بومعزة، م.س، ص 128.
7. Ibid.,p.39.
8. ينظر : كمال شيرازي، كارتوش غولواز يفجر موجة استياء في الجزائر
9. WWW. ALMUTAMAR. COM
10. Mahdi Charef , Op.cit (1h :13).
11. كمال شيرازي، م.س.
12. الفيلم الجزائري كارتوش غولواز إهانة للجزائريين ، المرجع السابق.
13. كمال شيرازي، م.س.
14. كاليدينو بركة، حرب الجزائر في نظر طفل في فيلم لمهدي شارف www.startimes.com
15. عبد الغني بومعزة ، م.س ، ص 132.
16. عثمان تزغارت، فيلم مهدي شارف يؤنسن سنوات الجمر www.aafak.org
17. ينظر:عبد الغني بومعزة ، م.س ، ص 132.